المحاضرة 2- المسالك التجارية بين الغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي:

دراسة في الجغرافيا الاقتصادية والتحولات الحضارية (ق 2-10هـ / 8-16م)

المستخلص (Abstract):

تتناول هذه الدراسة شبكة المسالك التجارية العابرة للصحراء الكبرى، والتي ربطت بين حواضر الغرب الإسلامي (المغرب والأندلس والجزائر) وممالك السودان الغربي. تهدف الدراسة إلى تحليل البنية اللوجستية لهذه المسالك، وفهم ديناميكية التبادل التجاري القائم على "ثنائية الذهب والملح". كما تسلط الضوء على الدور الذي لعبته هذه الطرق في نقل المؤثرات الثقافية واللغوية والمذهب المالكي، مستندة إلى أمهات المصادر التاريخية والدراسات المعاصرة. خلصت الدراسة إلى أن هذه المسالك كانت بمثابة نظام عالمي مصغر ساهم في صياغة هوية المنطقة الإفريقية جنوب الصحراء.

1. المقدمة

لم تكن الصحراء الكبرى في المتخيل الجغرافي الإسلامي مجرد قفار موحشة، بل كانت فضاءً حيوياً وشرياناً يربط بين حضارات متباينة. بدأت هذه العلاقة تأخذ شكلاً منظماً منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، حيث تحولت القوافل إلى أداة لربط الاقتصاد المتوسطي بمناجم الذهب في أعماق إفريقيا. تبرز أهمية هذا العمل في كونه يربط بين البعد الاقتصادي والتحول السوسيولوجي واللغوي الذي طرأ على المجتمعات الإفريقية نتيجة هذا الاحتكاك.

2. الجغرافيا التاريخية للمسالك (الطرق والواحات)

اعتمدت استدامة التجارة على القدرة على تطويع الجغرافيا. ويمكن تقسيم هذه المسالك إلى ثلاثة محاور كبرى:

أ. المحور الغربي (طريق سجلماسة - أودغشت)

يُعد هذا الطريق هو "الأم" في التجارة الصحراوية. يذكر **الناني ولد الحسين** في دراسته لصحراء الملثمين أن "سجلماسة" كانت تمثل العقدة التجارية المركزية. ومنها تنطلق القوافل نحو **أودغشت**، وهي المدينة التي لعبت دوراً محورياً في دولة المرابطين. كانت هذه الطريق هي القناة الرئيسية لتدفق ذهب "بامبوك" نحو المغرب ثم الأندلس.

ب. المحور الأوسط (طريق توات - تادمكة)

برزت منطقة **توات** (جنوب الجزائر حالياً) كمركز استراتيجي لا غنى عنه. ويؤكد **عبد الله مقلاتي ورموم محفوظ** أن توات كانت تمثل "الميناء الجاف" الذي تتفرع منه الطرق نحو تيمبكتو وكاو. هذا المسلك

تميز بكونه مسلكاً علمياً بامتياز، حيث استقرت فيه عائلات علمية هاجرت من الأندلس وتلمسان نحو السودان الغربي.

ج. المحور الشرقي (طريق القيروان - كانم)

ربط هذا الطريق بين إفريقية (تونس) وحوض بحيرة تشاد. وقد كان للتجار الإباضية، كما يوضح **محمد صالح ناصر**، دور ريادي في ارتياد هذا الطريق وتأسيس مراكز تجارية مستقرة ساهمت في نشر الإسلام في السودان الأوسط.

3. اقتصاديات القوافل: ثنائية الذهب والملح

تقوم فلسفة التجارة في هذا العصر على "تبادل الضروريات".

- **معدن الذهب:** كان السودان الغربي يُعرف في المصادر العربية بـ"بلاد التبر". ويشير **بوفبل** إلى أن الذهب لم يكن مجرد سلعة، بل كان أساس القوة النقدية للدول الإسلامية في الشمال.
- **سبائك الملح:** في المقابل، كان الملح من ملاحات **تغارزة** و**إيغيل** يُنقل في قوالب صخرية. ويصف **ابن بطوطة** في رحلته (تحفة النظار) كيف كانت هذه القوالب تقطع وتباع بأسعار خيالية، حتى قيل إن الملح كان يُقايض بوزنه ذهباً في بعض فترات القحط.

4. التحليل اللغوي والأثر الثقافي

لم تكن اللغة العربية لغة طقوس دينية فحسب، بل أصبحت لغة "العقد التجاري" و"الديوان".

أ. تغلغل المفردات العربية

أدى هذا الاحتكاك إلى ظهور لغات "الهجين التجاري" وبروز مصطلحات عربية في لغات الهوسا والسوناي:

- **في التنظيم المالي:** انتقلت كلمات مثل (دينار، درهم، سوق، مال، تاجر) لتصبح جزءاً من المعجم المحلي.
- **في لغة الهوسا:** نجد كلمة **"Alkali"** (القاضي) و **"Kasafi"** (الحساب) و **"Litafi"** (الكتاب).

ب. الكتابة بالأعجمية (Ajami)

من أهم النتائج الثقافية استخدام الحرف العربي لكتابة اللغات الإفريقية المحلية، وهو ما يُعرف بتراث "العجمي"، والذي حفظ لنا تاريخ تلك الشعوب وأدبها قبل الاستعمار.

5. الأبعاد الاجتماعية والدينية (دور العلماء والقوافل)

كان التاجر في كثير من الأحيان هو الفقيه نفسه. يذكر **البرتلي** في (فتح الشكور) تراجم لعشرات العلماء الذين جابوا هذه المسالك.

- **نشر المذهب المالكي:** بفضل المسلك الغربي، توحد الغرب الإسلامي والسودان الغربي تحت راية الإمام مالك، مما خلق وحدة تشريعية سهلت المعاملات التجارية والارتباط السياسي.
- **الحواضر العلمية:** تحولت تيمبكتو بفضل الذهب إلى مركز لاستقطاب المخطوطات. ويذكر **أحمد بابا التنبكتي** في (نيل الابتهاج) أن تجارة الكتب في تيمبكتو كانت من أكثر التجارات رواجاً وربحاً.

6. جدول مقارن للمسالك والسلع

المحور	المركز الشمالي	المركز الجنوبي	السلع الصادرة	السلع الواردة	القوة المسيطرة
الغربي	سجلماسة	ولاتة / أودغشت	الملح، المنسوجات	الذهب، العاج	المرابطون / صنهاجة
الأوسط	توات / تلمسان	تيمبكتو / كاو	الكتب، الورق، الخيول	الذهب، الرقيق	قبائل مسوفة / الطوارق
الشرقي	ورقلة / القيروان	كانم / برنو	النحاس، الخرز	الجلود، الصمغ	الإباضية / بنو غانية

7. الخاتمة والنتائج

1. **التكامل الاقتصادي:** شكلت المسالك التجارية نظاماً تكاملياً جعل من الصحراء الكبرى "منطقة تجارة حرة" قبل العصر الحديث.
2. **الهوية الحضارية:** ساهمت التجارة في نقل "النموذج المغربي" في الإدارة والقضاء والتعليم إلى ممالك مالي وسنغاي.

3. **تراجع الدور:** بدأ هذا النظام بالانهيار مع التحول نحو التجارة البحرية الأطلسية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، مما أدى إلى عزلة المراكز الصحراوية التقليدية.